الباب الرابع

مـــع الله

الفصل الثالث عشر

الطريق إلى اللّه

- **ـ العقل فى مهمة إيمانية**
- **ـ رحلة سير أنتونى فلو**
  - ـ رحلة أنتونى فلو الفكرية
  - ـ خاتمة المطاف
  - ـ العلم الحديث والإله الخالق
- **ـ رحلة د. جيفرى لانج**
  - ـ رؤيا جيفرى لانج
  - ـ فهم جيفرى لانج للإسلام
  - ـ الإلحاد والضياع
  - ـ جيفرى والقرآن: وجهًا لوجه
  - ـ الطريق إلى الإسلام
  - ـ جيفرى ومنهج القرآن
- **ـ رحلة د. مصطفى محمود**
  - ـ معاناتى مع الشكوك: تمرد العقل
  - ـ لا إله إلا العلم
  - ـ الإله يفرض نفسه
  - ـ ضباب وحدة الوجود، المخلوق هو الخالق!
  - ـ وانقشع الضباب
  - ـ نسيج واحد يعنى خالق واحد
  - ـ التوازن العظيم
  - ـ غَرَقَ العلمُ فى الغيبيات
  - ـ دليل الروح والنفس والجسد
- **ـ رحلة د. عبد الوهاب المسيرى**
  - ـ بذور الشك
  - ـ عودة الوعى
  - ـ مقدمات العثور على الذات
  - ـ محطات فى رحلة الإيمان
  - - أدركت تركيبية الظاهرة الإنسانية
  - ـ مصدر حرية الإرادة؟
  - ـ تبنيت العنصر الكونى
  - ـ وداعًا للشك، كتاب الفردوس الأرضى
  - ـ أدراكت فطرية الخير
  - ـ أذن المؤذن فأقمت الصلاة
  - ـ وقفات فى ساحة اليقين
- **ـ القارئ الكريم**

«لقد أنجزت الفلسفة مهمتها الأساسية بنجاح عظيم عندما تَوَصَّلَت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود الإله الخالق، الذى خلق الكون ليكون مُعَدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذى هو الإنسان».

سير أنتونى فلو

«هكذا قدم لى العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله».

د. مصطفى محمود

تُعتبر حياة الإنسان «**رحلة عبر الزمان**»، ويُعتبر سفره للسياحة أو الدراسة أو العلاج «**رحلات عبر المكان**»، وتتفاوت هذه الرحلات فى دوافعها ومردودها. وتظل «**الرحلة إلى الله** عَزَّوَجَلَّ» مبتغى معظم البشر، فهى **الغاية من الوجود الإنسانى** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق]، وهى رحلة الإنسان من المخلوق إلى الخالق، ومن الموجود إلى الموجد، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الملك إلى الملكوت إلى الجبروت.

ولا شك أن القرآن الكريم قد أنار لنا الطريق إلى الله وخط لنا الصراط المستقيم، حتى إن الرسول الكريم ﷺ لم يفارق حياتنا الدنيا إلا وقد اكتمل المنهج: ﴿... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ... ٣﴾ [المائدة].

وبالرغم من أن الصراط المستقيم واحد، فقد قال أحد العارفين بالله: «**عدد الطرائق بعدد الخلائق**»، لذلك شبهوا الطريق إلى الله بأنصاف أقطار دائرة، مركزها هو الله عَزَّوَجَلَّ وكل إنسان هو نقطة على محيط الدائرة، ومن ثم هناك أنصاف أقطار للدائرة (تصل المحيط بالمركز) بعدد أفراد البشر. فهذا إنسان قَرَّبَه من الله عَزَّوَجَلَّ تأمل آيات كتاب الله المسطور (القرآن الكريم)، وآخر قَرَّبَه تأمل آيات كتاب الله المنظور (الكون والأنفس)، وثالث قَرَّبَه من الله عَزَّوَجَلَّ اتباع سنة الرسول الكريم ﷺ، ورابع ربما لا يفهم اللغة العربية ولكن استمال قلبه إيقاع ترتيل القرآن أو إنشاد دينى شجى، وهكذا.

العقل فى مهمة إيمانية

نعـرض فى هذا الفصل الرحلات العقلية الإيمانية لأربعة من كبار المفكرين، كان لكل منهم شكوكه أو دوافعه الإلحادية لفترة طويلة من حياته، ثم عانى مرحلة من القلق النفسى والفكرى، حتى اهتدى إلى طريق الله عَزَّوَجَلَّ، كلٌ منهم عبر **رحلة تتناسب مع شخصيته ونمطه الفكرى**.

وهذه الرحلات الأربع هى:

رحلة سير أنتونى فلو: وطريقها العلم والفلسفة.

رحلة د. جيفرى لانج: وطريقها الإيمان القلبى والنظر فى القرآن الكريم.

رحلة د. مصطفى محمود: وطريقها الشك وطرح التساؤلات.

رحلة د. عبد الوهاب المسيرى: وطريقها تأمل الذات الإنسانية والحضارة المادية.

وتتضافـر هـذه الرحلات الأربع لتشـكل **نسـيجًا واحـدًا ينتظم معظم جوانـب المنظومة الإيمانية** التى تُشـبع كلًا من تساؤلات العقل وأشـواق النفس، وقد تأثرت شخصيًا بالعديد من جوانب رحلات هؤلاء الكبار.

رحلة سير أنتونى فلو

سـير «أنتـونى فلو[1]» (أسـتاذ الفلسـفة البريطانى) اسـم ذائـع الصيت فى مجـالات الفكر والفلسـفة والإلحاد والتدين! كان يُعَد بحق **من أكبر ملاحدة العصر الحديث**، وكانت كتاباته الغزيـرة جدول أعمال الفكر الإلحادى طوال النصـف الثانى من القرن العشرين، لذلك اخترنا أن نبدأ معه رحلاتنا الإيمانية.

فى التاسع من ديسمبر عام 2004، فوجئ العالم بخبر ما زال صداه يتردد فى الأوساط الفلسفية والعلمية والثقافية والدينية؛ لقد أعلن أنتونى فلو (بعد أن تجاوز الثمانين من العمر) أنه **قد صار يؤمن بأن «هناك إلهًا»**. وقد أذاعت وكالة أنباء الأسوشيتد برس الخبر بعنوان:

(1) Sir Antony Flew: وُلد فى لندن فى 11/ 2/ 1923، وتوفى عام 2010.

«ملحد شهير يؤمن بالإله، بدافع من الشواهد العلمية»

Leading atheist now believes in God، more or less
based on scientific evidence.

أصاب الخبر الملاحدة من **زملاء أنتونى فلو وتلاميذه** بهستيريا عارمة، حتى امتلأ إعلام العالم الغربى الحر بسخريتهم وازدرائهم لهذا التحول!

وقد طُلب من أنتونى فلو مرارًا أن يُصدِر كتابًا يعرض فيه رحلته، من صبى متدين إلى رجل ملحد إلى شيخ فى الثمانين يؤمن بوجود الإله. وأخيرًا صدر عام 2007 الكتاب المنتَظَر[1] بعنوان:

«هناك إله: كيف عَدَلَ أشرسُ مُلحدٍ عن الإلحاد»

There is a god; How the World's most
notorious atheist changed his mind.

رحلة أنتونى فلو الفكرية

أ- ملحد صغير فى بيت متدين، دون دوافع واضحة:

ورث فيلسوفنا عن **والده رجل الدين المسيحى الكبير** حب الحكمة وشغفه العقلى ومنهجه التحليلى الدقيق فى البحث. ثم جاء دور رجال تميزوا بحرية الفكر ليؤصلوا فيه هذه المفاهيم، منهم ناظر مدرسته وبعض أساتذته فى الجامعة. كذلك كان للجو الفكرى الحر الذى يموج به نادى سقراط الفلسفى بجامعة أكسفورد أثر كبير فى **اتجاهه للتخصص فى الفلسفة**.

ويخبرنا أنتونى فلو فى كتابه أن هذه التنشئة دفعته إلى الاهتمام بعالم الفكر، لكنها لا تفسر بالتأكيد اتجاهه إلى الإلحاد. لذلك يقول إنه **لا يعرف حتى الآن لماذا رفض مفهوم الألوهية!**. وربما كانت «**مجادلة الشر والألم**» هى أكثر القضايا التى وجهته إلى الإلحاد منذ كان فى الخامسة عشر؛ إذ لم يستطع التوفيق بين ما ينزل بالبشر من شرور وآلام وبين أن الله محب لمخلوقاته رحيم بهم.

(1) قمت بترجمة هذا الكتاب وتلخيصه وعرضه كجزء من كتابى «رحلة عقل». نيوبوك، الطبعة العاشرة، 2017. ويمكن الرجوع إلى هذا الكتاب لمعرفة تفاصيل رحلة أنتونى فلو الإيمانية.

ب - أَلبَسَ الإلحادَ ثوبًا علميًّا فلسفيًّا منمقًا، لا يستحقه:

فى سـن السـابعة والعشرين، نشر أنتونى فلو بحثه «**زيف علم اللاهوت**» الذى عرض فيه حججه الإلحادية، وفى الوقت نفسه، دعى إلى **الحوار المستمر** بين الفلاسفة والمؤمنين. وفى كتبه التاليـة، دعى إلى اتباع **المنهـج العلمى فى تفنيد مفاهيم الديـن والألوهية، كما طالب المتدينين بتقديم الأدلة على وجود الإله** بعد أن كانت المسئولية تقع على الملاحدة فى نفى الألوهية.

جـ- حارس مرمى الإلحاد:

أصبـح أنتـونى فلو حارس مرمى الإلحـاد فى الغرب، فكان يُدعى كثـيرًا لإلقاء المحاضرات و إجراء الحوارات التليفزيونية. وكان آلاف المشاهدين يحضرون مناظراته مع المؤمنين، والتى كانت تُنقل عبر وسائل الإعلام.

د- خطوات من الإلحاد إلى الشك إلى اليقين:

يخبرنـا أنتونى فلـو **أن** ليس هـناك خـط فاصـل واضح فى رحلته الفكرية من الإلحاد إلى تبنيه الإيمـان بوجـود الإله. ويصرح فلو أن **هذا التَّحَـوُّل تقف وراءه القفـزات العلمية الهائلة**، التى حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين. فقد أكدت هذه الاكتشافات أن **الكون والحياة**، بما فيهما من تعقيد مذهل، لا يمكن إرجاعهما إلى الصدفة والعشوائية، ولا بد أن يكون وراءهما إله حكيم قادر، وأن ما فى الوجود من **قوانين ثابتة متناغمة** يعكس ما يمكن أن نسميه **فِكر الإله**.

العلم الحديث والإله الخالق

يرى أنتونى فلو **أن العلم الحديث يُجَلِّى خمسة أبعاد تشير إلى الإله الخالق:**

1- **الكـون لـه بداية وخـرج فى العدم**، وقد فشـلت جهـود العلماء والفلاسـفة الماديين فى الوصـول إلى نظريـة مقبولة تفسر البداية فى العدم المطلق بمعـزل عن الإله الخالق. وقد أدرك فلو ذلك من خلال دراسة نظرية «الانفجار الكونى الأعظم».

2- **تسـير الطبيعة وفق قوانين ثابتة مترابطة**، ويتطلب ذلـك الإقرار بواضع لهذه القوانين. والأكـثر دلالة عـلى الإله الخالق هـو أن **هذه القوانين تشـمل الموجـودات كلها، وأنها**

مترابطة مع بعضها البعض، وأنه يمكن التعبير عنها بصياغات رياضية دقيقة لا تشغل أكثر من صفحة واحدة.

3- **نشأة الحياة بكل ما فيها من دقة وغائية وذكاء.** فلا شك **أن الصدفة والعشوائية، وكذلك كل قوانين الطبيعة التى نعرفها، تعجز مجتمعة عن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية.** وقد تكشف لفلو ذلك من خلال دراسته لبنية جزىء الدنا DNA وطريقة أدائه لوظائفه.

4- **يهيئ الكون، بما فيه من موجودات وقوانين، الظروف المُثلَى لظهور ومعيشة الإنسان، وهو ما يُعرف بالمبدأ البشرى.** وكلما زادت معارفنا عن دقائق بنية الكون، كلما تأكدت ملاءمتها لاحتياجات الإنسان. مما يشير إلى أن هذا الكون قد أُعِد لاستقبالنا.

وفى نفس الوقت فإن ما وضعه العلماء والفلاسفة الماديون من تفسيرات لهذا التناغم (كفرضية الأكوان المتعددة) مثير للسخرية، ويجعل **القول بالإله المُصَمِّم لهذا الكون أكثر قبولًا من الناحية العلمية.**

5- **العقل، خصوصية الإنسان.** إن قدرات العقل الإنسانى على التفكير المنطقى فى الأمور المادية وفى المفاهيم المجردة، وإدراك ما يحيطنا وما بداخلنا، وإدراك الإنسان لذاته، لا يمكن أن تكون صادرة تلقائيًّا عن المخ البشرى المادى! إذ **لا تستطيع اللغة الكهروكيميائية للمخ، والتى لا تختلف عن نشاط باقى الخلايا الحية، أن تقوم بكل هذه المهام** وإنتاج كل ما تملكه الحضارة الإنسانية من إبداعات. **لقد أصبح لا مفر من اللجوء إلى عالم ما وراء الطبيعة لتفسير قدرات العقل الخارقة.**

ويختم أنتونى فلو عرض حججه الإيمانية قائلًا:

ليست **معطيات العلم الحديث** فقط هى التى دفعتنى لتغيير قناعاتى، ولكنى أيضًا **أَعَدْتُ النظر فى البراهين الفلسفية التقليدية التى قادتنى من قبل إلى الإلحاد**، ثم طَبَّقْتُ نفس القاعدة السقراطية المنهجية التى اتبعتها طوال حياتى الفلسفية الملحدة:

«**أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا**»[1]، فقادنى البرهان، هذه المرة، إلى الإيمان.

(1) «To Follow The Argument wherever it Leads»

خاتمة المطاف

يخبرنا أنتونى فلو، أنه و إن كان قد صار مؤمنًا بالإله الخالق للكون، فإن هناك مفهومين يتبناهما منذ إلحاده، ولم يغير فيهما رأيه:

أولًا: يرفض فلو فكرة تَجَسُّد الإله المطلق فى هيئة بشرية (المسيح)، كما يعتقد المسيحيون.

ثانيًا: لم يتوصل فلو إلى أدلة عقلية وعلمية على التواصل بين الإله والبشر، عن طريق الوحى.

ومن ثم، يؤمن أنتونى فلو بالإله الخالق ولا يؤمن بالأديان السماوية، وبالتالى يمكن اعتباره **من أنصار الديانة الطبيعية (الربوبيون** Diests)، و إن كان قد **مات وهو يبحث عن الأدلة على تواصل الإله مع مخلوقه الإنسان.**

ونسجل هنا **عقيدة أنتونى فلو فى الإله،** والتى مات عليها، يقول:

لقد صرت أؤمن بإله واحد أحد،

واجب الوجود،

غير مادى، لا يطرأ عليه التغير،

مطلق القدرة، مطلق العلم،

كامل الخير[1].

ويرى فلو أن الفلسفة قد أَنْجَزَت مهمتها الأساسية بنجاح عظيم عندما تَوَصَّلَت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود الإله الخالق، الذى خلق الكون ليكون مُعَدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذى هو الإنسان. لذلك يردد دائمًا قوله: لقد كان توصلى إلى وجود الإله عن طريق العقل، دون الحاجة إلى تدخل غيبى خارق من وحى أو معجزات (كما يحدث فى الأديان السماوية)، لقد **كانت رحلة عقل وليست رحلة إيمان قلبى.**

(1) لا شك أن هذا الوصف للإله يتفق إلى حد بعيد مع عقيدة الأديان السماوية المُوَحِّدة.

لذلك علقت مجلة تايم الأمريكية على صدور كتاب أنتونى فلو بقولها: **على رأس أعظم الاكتشافات العلمية فى العصر الحديث يأتى اكتشاف أن «هناك إلهًا»**.

رحلة د. جيفرى لانج [1]

تُعتبر رحلة عالم الرياضيات الأمريكى «**جيفرى لانج**[2]» تجربة فريدة فى **الانتقال من الإلحاد إلى الإيمان واعتناق الإسلام**. وقد سجل جيفرى لانج رحلته الإيمانية فى كتابه «**الصراع من أجل الإيمان**»، وأهداه إلى بناته الثلاث المؤمنات، كإجابة لسؤال إحداهن له: يا أبت لماذا أصبحت مسلمًا؟.

رؤيا جيفرى لانج

يبدأ جيفرى رواية رحلته الطويلة الشاقة **برؤيا رآها أكثر من عشر مرات** خلال أعوام عشرة، فيقول: كنت فى غرفة صغيرة ليس فيها أثاث، تغطى أرضها سجادة ألوانها الأساسية الأحمر والأبيض. وكانت جدرانها العارية رمادية بيضاء. كانت هناك نافذة صغيرة مواجهة لنا أشبه بنوافذ القبو، تملأ الغرفة بالنور الساطع. كنا مجموعة من الرجال جالسين على أقدامنا فى صفوف مواجهين النافذة؛ وكنت أنا فى الصف الثالث، وكنت أشعر بالغربة، فلم أكن أعرف أحدًا منهم، ربما كنت فى بلد آخر. وكنا نقف ثم ننحنى على نحو منتظم حتى تقابل وجوهنا الأرض، وسرعان ما كنا نعود للجلوس على أقدامنا. كان الجو هادئًا وساكنًا، لا تسمع فيه همسًا. وعندما نظرت إلى الأمام أدركت أن شخصًا ما يَؤُمُّنا، وكان بعيدًا عنى إلى جهة اليسار، كان يقف بمفرده فى الوسط تحت النافذة تمامًا، وكنت بالكاد ألمح ظهره، وكان يرتدى عباءة بيضاء طويلة ويضع على رأسه لفة بيضاء موشاة برسم أحمر. وفى تلك الأثناء كنت **أستيقظ من نومى مرتاحًا**.

(1) بتصرف من عرض مركز نماء للبحوث والدراسات لكتاب «**الصراع من أجل الإيمان**»، الذى يروى فيه د. جيفرى لانج رحلته مع الإسلام.

(2) Jeffrey Lang: أستاذ الرياضيات بجامعة كانساس بالولايات المتحدة. ولد لعائلة كاثوليكية بمدينة برديجبورت عام 1954.

الإلحاد والضياع

لم يلتفت جيفرى (الذى تم تعميده ونشأ فى وسط كاثوليكى جنوب ولاية كونيكتيكت) لهذه الرؤيا بعد أن قاده ذكاؤه وعقله الرياضى و إعجابه الشديد بالفكر المنطقى وعدم رضائه عن الكثير من عقائد المسيحية إلى الإلحاد. و يتخذ جيفرى من موقفه من **رمزية الصليب** (كان موت الابن البشرى للإله على الصليب فداءً أبديًّا للبشرية)إشارة **لمرحلة تحوله عن المسيحية إلى الإلحاد،** فيقول: «**عندما أصبحت ملحدًا قذفت بالصليب جانبًا**، وصحب ذلك شعور داخلى بالضياع، فإن لرموزنا من التأثير ما يشعرنا باضطراب نفسى إذا فقدناها، خاصة عندما لا يكون البديل جاهزًا».

فى البداية اعتقد جيفرى أن **السعادة تكمن فى اللقب الأكاديمى**، واستشعرها يوم مناقشة أطروحته للدكتوراه و إعلان النتيجة، لكن فرحته تلاشت بمجرد عودته إلى شقته، وكان كلما حاول استرجاعها غمره مزيد من الشعور بالسوداوية وخيبة الأمل والمرارة. عَبَّرَ جيفرى عن ذلك بقوله: «**ما نحن سوى أحد الحيوانات التى تحاول أن تعيش سعيدة. هل هذا كل ما فى الحياة؛ نجاح يفتر يليه آخر، وهكذا؟**».

و يصف جيفرى بحرقة نفسية الفرد الملحد، وطبيعة علاقاته وانفعالاته وتوجهاته الفكرية والعقائدية والاجتماعية، محللًا سيكولوجية الملحد الانعزالية الهشة، فيقول: «**سرعان ما تعلمت أن لا أحدًا يعرف الوحدة كالملحد**. فعندما يشعر المؤمن بالوحشة فإنه يناجى، من أعماق روحه، الواحد الأحد الذى يعرفه، و يكون بمقدوره أن يشعر بالاستجابة. ولكن الملحد محروم من هذه النعمة؛ لأن عليه أن يسحق هذا الدافع، و يُذَكِّر نفسه بسخفه. **فالملحد هو إله عالمه الخاص**، وهو عالم صغير جدًّا، يحدده مجال إدراكاته، وهذه الحدود دومًا فى تناقص مستمر. والملحد لا يُشبع حاجاته شىء؛ لأن عقيدته تخبره **أن ليس للحياة هدف، وأن ليس هناك شىء كامل أو شىء مطلق**. ولذا عندما اتَّبعتُ النماذج الاجتماعية السائدة[1]، لم يكن ذلك لأنى أُقَدِّرها، بل لأنها تُسَيِّر سفينة الحياة.

ولا شك أنه توجد دومًا فى أعماق الإنسان **حاجة فطرية إلى تجاوز أبعاده المادية والانجذاب**

(1) يقصد بذلك التماشى مع أعراف المجتمع ومقاييسه ومفاهيمه.

إلى قـوة ما وراء الطبيعـة، وهى التى تلهمه وتقو يه وترشـده إلى الصواب وتشـعره بالاطمئنان والأمان. و إذا كان المتدين يؤمن بأشياء تفوق إحساسه و إدراكه، فإن الملحد لا يستطيع الثقة بتلك الأشياء، وليس عنده شىء حقيقى، ولا حتى الحقيقة ذاتها.

وعادة ترى الملحد منشـغلًا بنفسه، يحاول الحفاظ على وحدتها واتزانها، لتصبح ذات معنى. وفى الوقـت ذاته عليه أن يقبل **تطفل القوى الخارجية**، خاصة العلاقات الإنسـانية، على عالمه، دون أن يسـتطيع كبـح جماحها. **فالملحد يحتاج إلى البسـاطة والعزلة والانفـراد، ولكنه يحتاج أيضًا للتواصل مع الآخرين»**.

وتبلغ مأسـاة الملحد ذروتها عند **التفكر فى الموت**، فى ذلك يقول جيفرى: «إننا جميعًا نصبو للخلـود. وبمقدور المؤمن أن يتخيل السـبيل لتحقيق ذلك، أمـا الملحد فعليه أن يفكر فى حلول بديلـة آنيـة، ربما عن طريـق الزواج و إنشـاء أسرة، أو تأليف كتاب أو إنجـاز اختراع ما، أو القيـام بمأثـرة أو عمل بطولى أو رومانسى، بحيث يعيش فى أذهـان الآخرين. **إن هدف الملحد الأسمى ليس الذهاب للجنة، بل أن يذكره الناس»**.

الطريق إلى الإسلام[1]

يقـول جيفـرى لانج: «توثقـت علاقتى فى جامعة سـان فرانسيسـكو **بطالب عربى** كنت أُدرِّسُـهُ، فأهدانى **نسخة مترجمة من القرآن**، فلما قرأته لأول مرة شعرت كأن «القرآن هو الذى يقرأنى»!.

وفى أحد الأيام عزمت على **زيارة هذا الطالب فى مسجد الجامعة**. هبطت الدَرَج ووقفت أمام الباب متهيبًا الدخول، ثم صعدت وأخذت نفسًا طويلًا، ثم هبطت ثانية، لم تكن رجلاى قادرتين على حملى! مددت يدى إلى مقبض الباب فأخَذَت ترتجف، ثم هرعْتُ إلى أعلى الدرج ثانية...

شعرت بالهزيمة، وفكرت بالعودة إلى مكتبى.. مرت عدة ثوان كانت هائلة ومليئة بالمشاعر المتناقضـة التى اضطرتنى أن أنظر إلى السـماء، لقد مرت علىَّ عشر سـنوات وأنـا أقاوم الدعاء

(1) هذا الجزء بتصرف عن موقع «صيد الفوائد» بعنوان «هكذا أسلم جيفرى لانج»، بقلم الشاعر الدكتور عبد المعطى الدالاتى.

والنظـر إلى السـماء! أما الآن فقـد انهارت المقاومة وارتفـع الدعاء: «**اللهـم إن كنت تريد لى دخول المسجد فامنحنى القوة**».

نزلت الدَرَج، دفعت الباب، كان فى الداخل شابان يتحاوران. ردا التحية، وسألنى أحدهما: هل تريد أن تعرف شـيئًا عن الإسلام؟ أجبت: نعم، نعم.. وبعد حوار طويل أبديت **رغبتى فى اعتناق الإسـلام**، فقال لى أحدهما: قل أشـهد، قلت: **أشهد**، قال: أن لا إله، قلت: **أن لا إله** ـ لقد كنت أؤمن بهذه العبارة معظم حياتى قبل اللحظة ـ قال: **إلا الله**، رددتها، قال: **وأشهد أن محمدًا رسول الله**، نطقتها خلفه».

يقول جيفرى لانج معلقًا على هذه اللحظة: «كانت هذه الكلمات **كقطرات الماء الصافية** تنحدر فى الحلق المحترق لرجل قارب الموت من شـدة العطش، وكنت أستعيد القوة بكل كلمة منها، **كنت أعود للحياة ثانية**. كنت **أنضم إلى أتباع الأنبياء جميعًا** الذين يؤمنون بكافة الرسل الذين أُرسلوا فى مختلف العصور لجميع الأجناس والأعراق، مادًا يدى كتابع ومصدق لمن بُعث للإنسـانية منذ أربعة عشر قرنًا خلت. إن هذا يعنى التزامًا بطريق عالمى متمتع بقداسة القِدم، بَشَّرَ به حملة عدة رسائل سماوية بشرت بظهور محمد ﷺ. شعرت بالحصانة والأمان والحرية، شـعرت أنـه بمقدورى الآن **أن أحب وأن يحبـنى من لا حدود لعطاءاتـه ونعمه**، لقد هويت فى الرحمـة النابعـة من الحب الأسـمى. لقد **عـدت إلى ملاذى ثانيـة**!» إنه الوعى الحـاد والإدراك الروحى والقلبى والعقلى أثناء النطق بالشهادة، بمقتضياتها وأبعادها.

ويضيـف جيفرى: «بعد يومين حـضرت **أول صلاة جمعة**، كنا فى الركعـة الثانية، والإمام يتلو القرآن، ونحن خلفه مصطَّفون، الكتف بالكتف، كنا نتحرك وكأننا جسـد واحد، كنت أنا فى الصف الثالث، وجباهنا ملامسة للسجادة الحمراء، وكان الجو هادئًا والسكون مخيمًا على المكان!! والإمام تحت النافذة التى يتسـلل منهـا النور يرتدى عباءة بيضاء! صرخت فى نفسى: إنه الحلم! **إنه الحلم ذاته**... تساءلت: هل أنا الآن فى حلم حقًا؟! فاضت عيناى بالدموع، السلام عليكم ورحمة الله، انقضت الصلاة، ورحت أتأمل الجدران الرمادية! تملكنى الخوف والرهبة، عندها شعرت لأول مرة بالحب الذى لا يُنال إلا بأن نعود إلى الله عَزَّوَجَلَّ».

ومن الطبيعى أن تنهال الأسـئلة على الدكتور جيفرى لانج تبحث عن سر إسـلامه، فكان يجيـب: «فى لحظـة من اللحظات الخاصة فى حياتى، **منَّ الله بواسـع علمـه ورحمته علىّ، بعد أن**

وجد ما أكابد من العذاب والألم، وبعد أن وجد لدىَّ الاستعداد الكامل لملء الخواء الروحى فى نفسى، فأصبحت مسلمًا... قبل الإسلام لم أكن أعرف معنى للحب، ولكننى عندما قرأت القرآن شعرت بفيض واسع من الرحمة والعطف يغمرنى، وبدأت أشعر بديمومة الحب فى قلبى، **فالذى قادنى إلى الإسلام هو محبة الله التى لا تقاوَم».**

فهم جيفرى لانج للإسلام

«الإسلام هو **الخضوع لإرادة الله**، وطريق يقود إلى **ارتقاء لا حدود له** و إلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة. إنه المحرك للقدرات الإنسانية جميعها، إنه **التزام طوعى** للجسد والعقل والقلب والروح».

«بعد أن أسلمت كنت أحرص على حضور الصلوات كى أسمع **تلاوة القرآن**، على الرغم من أنى كنت أجهل العربية. ولما سُئلت عن ذلك أجبت: لماذا يسكن الطفل الرضيع و يرتاح لصوت أمه؟ أتمنى أن أعيش تحت حماية ذلك الصوت إلى الأبد».

«**الصلاة هى المقياس الرئيس اليومى لمدى خضوع المؤمن لربه**، و يالها من مشاعر رائعة الجمال، فعندما تسجد بثبات على الأرض، تشعر فجأة كأنك رُفعت إلى الجنة، تتنفس من هوائها وتشتمُّ تربتها وتتنشق شذا عبيرها، تشعر وكأنك توشك أن تُرفع عن الأرض، وتُوضع بين ذراعى الحب الأسمى والأعظم».

«إن **صلاة الفجر** من أكثر العبادات إثارة، فثمة دافع ما فى النهوض فجرًا ـ بينما الجميع نائمون ـ لتسمع موسيقى القرآن تملأ سكون الليل، فتشعر وكأنك تغادر هذا العالم وتسافر مع الملائكة لتمجّد الله عند الفجر».

جيفرى والقرآن: وجهًا لوجه[1]

تبدو العلاقة بين القرآن الكريم وجيفرى لانج ذات طبيعة خاصة، تفاعلية وسجالية

(1) رغم عدم معرفة جيفرى لانج باللغة العربية، وتعامله مع ترجمة لمعانى القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، وما نتج عن ذلك من حرمانه من الاتصال المباشر بالنص القرآنى، فإنه سبح مع القرآن فى تأملات هائلة وتفاعل حى و يقظ مع منهج الإسلام وروحه.

وحجاجيـة، لقـد تعامل جيفرى مـع القرآن بعقلانيـة منفتحة ومنطقية صارمـة وفكر تحليلى تعليلى، طارحًا عليه أسئلة حارقة وهواجس مؤرقة.

يخبرنـا جيفرى أنـه قرر **الدخـول فى معركة حادة ومبـارزة عقلية مع القـرآن**. فكان يقرأ صفحـة فى الترجمـة وفى الليل يطرح عشرين أو ثلاثين سـؤالًا، **وكان القـرآن يهزمه**، إذ يجد فى الآية التالية أو الصفحة التالية أو السـورة التالية الأجوبة المفحِمة على أسـئلته. ثم تُفجِر هذه الأجوبة أسـئلة أخرى، فيظن أنه أمسك بخناق القرآن، فإذا به مرة أخرى يصرعه، إذ يجد بعد قليل الإجابة التى تغلق عليه كل منافذ الشك والريب والشعور باستحالة الجواب.

ويصـف جيفرى هـذا الحال قائلًا: «إن القرآن يتحداك بشـكل مباشر وشـخصى وكأن له حقوقًا عليك، وهو يجادلك وينتقدك ويخجلك. لقد بدا واضحًا لى **أن مبدع القرآن يعرفنى أكثر مما أعرف نفسى**. لقد كان القرآن يسـبقنى دومًا فى تفكـيرى ويزيل الحواجز التى كنت بنيتها عبر سنوات، وكان يخاطب تساؤلاتى. **لقد قابلت نفسى وجهًا لوجه فى صفحات القرآن**، وكنت أشـعر بالانقياد بحيث كنت أشـق طريقى إلى حيث ليس سـوى خيار واحد، كنت خائفًا مما رأيت».

جيفرى ومنهج القرآن

يـرى جيفرى أن القرآن قـد عمد إلى **إصلاح المجتمع**، وليـس إلى تحطيمه وإعادة بنائه من نقطـة البدء، فقام باسـتبقاء ما كان نافعًـا ثم تعديله والبناء عليه. كذلـك يهدف القرآن لجعل المسـلمين يفكـرون بالدين بطريقـة جديدة؛ فهو يغرس فى أذهانهم أساسًـا جديـدًا لحياتهم، **ويرقى بنظرتهم إلى العالم إلى أخرى أكثر رفعة وسموًا**. لقد نقل هذا المنهج العرب من التقليدية إلى التميـز، ومن التهـور والاندفاع إلى النظام، ومن الغيبية إلى العلـم؛ ومن الحدس إلى التعليل الواعى، وفى النهاية فإنه **ينظم المجتمع على نحو مثالى**.

ومـن أهم ما لاحظـه جيفرى، ويلاحظه كل مسـتشرق غـربى معاصر، أن القـرآن يعرض العقيدة من خلال «**تحدى العقل واستنهاض الفكر التأملى**». فعندما يتحدث القرآن عن الكفار والجاحدين والمنكرين، فإنـه يسـألهـم بتحد: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ... ﴿٤٦﴾﴾ [الحـج]، و﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشـعراء]،

و﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ... ﴿٩﴾ ﴾ [الروم]، و﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ... ﴿٦﴾ ﴾ [ق]، و﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية]، و﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة]. إن هذه التساؤلات تؤكد أن **برهان صدق الرسالة يوجد فى التاريخ والثقافات والأرض والأكوان والطبيعة وغيرها**. فالقرآن يخاطب بآياته مَن ﴿ ...يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ ... ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة]، و﴿ ... ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت]، و﴿ ...أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر]، والذين ﴿ ...يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

ويصف جيفرى **دور القرآن الكبير فى إعادة بناء إدراكه ورؤيته للعالم ونظرته للوجود** قائلًا: «إن القرآن يأمرنا أن **نفكر بعين ناقدة فى سلوكنا ومعتقداتنا**. فالخلاص لا يمكن الحصول عليه إلا من خلال **تقصى الحقيقة والتسليم بها**. إن أحد أهداف القرآن أن يعلمنا كيف نعلل بدقة، وكيف نكشف عما هو متناقض ومتضارب داخل أنفسنا. لذلك تقترن فى العديد من **أمثلة القرآن وقصصه ونصائحه** دروس تتعلق بالتفكير الصحيح والتفكير الخطأ. ولاستكمال النظرة الموضوعية نجد أن القرآن يشدد على **أهمية الدليل والبرهان فى المناقشة**، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة].

لذلك كله لم يكن غريبًا أن يكون كتابَىّ «حتى الملائكة تسأل» و«حتى الخليل إبراهيم يريد أن يطمئن» من أهم كتب جيفرى لانج. فعنوانَىّ الكتابين يشيران إلى أن **التفكير والتساؤل هما جوهر الإيمان**، حتى عند الملائكة وعند أبى الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم.

هذه رحلة **جيفرى لانج الإيمانية**، والتى ذكرنا فى مقدمة الفصل أن طريقها كان **مزيجًا من الإيمان القلبى والنظر فى القرآن الكريم**. الإيمان الذى وَقَّرَه فى قلبه **تحقق الرؤيا** التى ألحت عليه مرارًا طوال عشر سنوات فى أرض الواقع، مما يعنى أن الله عَزَّوَجَلَّ قد اصطفاه وقدم إليه البرهان الذى لا يُرَد. أما **النظر فى القرآن الكريم** فقد روى ظمأ عقل جيفرى لانج حتى الثمالة، فأجابه عن كل التساؤلات وسد كل ثغرة للشك.

وإذا كانت الرحلة السابقة **لأنتونى فلو** ـ كما وصفها ـ رحلة عقل لا مكان للإيمان القلبى فيها، ووقفت به عند القول بالألوهية دون الإيمان بدين، فإن رحلة **جيفرى لانج** للإيمان القلبى فيها نصيب كبير، كما وصلت به لا أقول إلى شاطئ الدين الحق، بل خاضت به بحر الإسلام الممتد.

لذلك **لم يعد جيفرى لانج يتصور أن يحيا يومًا واحدًا خارج دائرة الإيمان**. وحول هذا المعنى يقول فى إحدى مناجاته لله عَزَّوَجَلَّ: «**يا ربى، إذا ما جنحتُ مرة أخرى نحو الكفر بك، اللهم أهلكنى قبل ذلك وخلصنى من هذه الحياة. اللهم إنى لا أطيق العيش ولو ليوم واحد من غير الإيمان بك**».

رحلة د. مصطفى محمود

يُعتبر د. مصطفى محمود صاحب أشهر رحلة إيمانية فى العالم العربى فى العصر الحديث. وقد طرحها باختصار ووضوح مذهلين فى كتابه الرائع «رحلتى من الشك إلى الإيمان»، والذى أنصح كل إنسان (مؤمن أو شكاك أو ملحد) بدراسته، وعن هذا الكتاب نلخص رحلة د. مصطفى محمود الإيمانية.

معاناتى مع الشكوك: تمرد العقل

كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره .. ربما كنت أدرج من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك ..بدأتُ **فى مطالع المراهقة** أتساءل وأُساءل أقرانى فى تمرد : تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق ولكل صنعة من صانع ولا بد لكل موجود من موجد.. صدَّقنا وآمنا .. فلتقولوا لى إذن **من خَلَقَ الله** ؟ أم أنه جاء بذاته؟. و إذا كان قد جاء بذاته وصح فى تصوركم أن يتم هذا الأمر .. فلماذا لا يصح فى تصوركم أيضًا أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق و ينتهى الإشكال.

كان وراء ذلك الجدل **زهوى بعقلى** الذى بدأ يتفتح، و إعجابى بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التى انفردت بها .. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب.

لقد رفضت عبادة الله لأنى **استغرقت فى عبادة نفسى** وأعجبت بومضة النور التى بدأت تومض فى فكرى مع انفتاح الوعى وبداية الصحوة من مهد الطفولة . وغابت عنى أيضًا أصول المنطق وأنا أعالج المنطق؛ فلم أدرك أنى أتناقض مع نفسى **عندما أعترف بالخالق ثم أقول ومن خلق الخالق**؟ فأجعل منه مخلوقًا فى الوقت الذى أسميه خالقًا، **وهذه هى السفسطة بعينها** . **فالقول بسبب أول** للوجود يقتضى أن يكون هذا **السبب واجب الوجود** فى ذاته وليس معتمدًا

ولا محتاجًا لغيره لكى يوجد . أما أن يكون السبب فى حاجة إلى سبب فإن هذا يجعله إحدى حلقات السببية ولا يجعل منه سببًا أول.

لقد احتاج الأمر **ثلاثين سنة** من الغرق فى الكتب وآلاف الليالى من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس و إعادة النظر ثم إعادة النظر فى إعادة النظر .. ثم تقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطريق الشائكة إلى الله. لم يكن الأمر سهلًا .. لأنى لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذًا سهلًا.

ولو أنى أصغيت إلى **صوت الفطرة** وتركت البداهة تقودنى لأعفيت نفسى من عناء الجدل.. **ولقادتنى الفطرة إلى الله** .. ولكنى جئت فى زمن تَعَقَّد فيه كل شىء **وضعف صوت الفطرة حتى صار همسًا، وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغرورًا واعتدادًا. والعقل معذور فى** إسرافه، إذ يرى نفسه واقفًا على هرم هائل من المنجزات، ويرى نفسه بانيًا لحضارة مبهرة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات، ويرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو .. فتصور نفسه القادر على كل شىء، وزج نفسه فى كل شىء، وأقام نفسه حاكمًا على ما يعلم وما لا يعلم.

لا إله إلا العلم

غرقت فى مكتبة البلدية بطنطا وأنا صبى، أقرأ لشبلى شميل وسلامة موسى وأتعرف على فرويد وداروِن.. وشغفت بالكيمياء والطبيعة والبيولوجيا .. وكان لى معمل صغير فى غرفتى أُحَضِّر فيه غاز ثانى أكسيد الكربون وثانى أكسيد الكبريت، وأقتل الصراصير بالكلور وأَشَرِّح فيه الضفادع.

وكان ما يصلنا من أنباء العلم الغربى باهرًا يخطف أبصارنا.. وكنا نأخذ من الغرب كل شىء؛ الكتب والدواء والملابس والمنسوجات والقاطرات والسيارات وحتى الأطعمة المعلبة، حتى قلم الرصاص والدبوس والإبرة، حتى نظم التعليم وقوالب التأليف الأدبى من قصة ومسرحية ورواية، حتى ورق الصحف.

وحول أبطال الغرب وعبقرياته كنا ننسج أحلامنا ومُثُلَنا العليا .. حول باستير وماركونى ورونتجن وأديسون .. وحول نابليون و إبراهام لنكولن .. وكرستوفر كولمبس وماجلان.

كان **الغـرب هو التقـدم**.. وكان **الشرق العربى هو التخلف** والضعـف والتخاذل والانهيار تحت أقدام الاسـتعمار. وكان طبيعيًّا أن نتصـور أن كل ما يأتينا من **الغرب هو النور والحق** .. وهو السبيل إلى القوة والخلاص.

ودخلـت **كليـة الطب**، وتعلمت مـع ما تعلمت فى كتـب الطب **النظرة العلميـة** .. وأنه لا يصح إقامة حكم بدون حيثيات من الواقع وشـواهد من الحس. وأن العلم يبدأ من المحسـوس والمنظور والملموس، وأن العلم ذاته هو عملية جمع شواهد واستخراج قوانين. وما لا يقع تحت **الحس** فهو فى النظرة العلمية غير موجود، وأن **الغيب لا حساب له فى حكم العلم**.

لقـد كانت الصيحة التى غمرت العالم هى .. العلم .. العلم .. العلم .. **ولا شىء غير العلم**.. **النظرة الموضوعية** هى الطريق.

لنرفض الغيبيات ولنكف عن إطلاق البخور وترديد الخرافات. من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات ؟

الإله يفرض نفسه

لقد قَدَّمَ لى **العلم صورة عن الكون بالغة الإحكام والانضباط** .. كل شىء من ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيه تناسق ونظام وجمال. الكون كله مبنى وفق هندسة وقوانين دقيقة. كل شىء يتحرك بحساب، من الذرة المتناهية فى الصغر إلى الشمس وكواكبها إلى المجرة الهائلة التى يقول لنا الفلك إن فيها أكثر من ألف مليون نجم.

كل هـذا الوجود اللامتناهى من أصغر إلكترون إلى أعظم جرم سـماوى صرت أراه **أشـبه بمعزوفة متناسـقة الأنغام** مضبوطة التوزيع.. كل حركة فيها بمقدار .. **أشـبه بالبدن المتكامل الذى تدب فيه روح. لذلك لم أسـتطع أن أنفى أو أسـتبعد القوة الإلهيـة، لقد صار العلم يمدنى بوسيلة أتصور بها الله بطريقة مادية.**

ضباب وحدة الوجود: المخلوق هو الخالق!

فى هـذه المرحلة تصورت أن الله **هو الطاقة الباطنـة فى الكون**، والتى تنظمه فى منظومات

جميلـة من أحيـاء وجمادات وأرض وسـماوات . هـو الحركة التى كشـفها العلـم فى الذرة وفى البروتوبلازم وفى الأفلاك .. هو الحيوية الباطنة فى كل شىء ..

كان الوجود فى تصورى لامحدودًا لانهائيًّا، لذلك أصبح الله **هو الوجود المادى الممتد أزلًا وأبدًا بلا بدء وبلا نهاية.. دون حاجة إلى افتراض الغيب والمغيبات..ودون حاجة إلى التماس اللامنظور.**

وبذلـك وقعـت فى أسر فكـرة **وحدة الوجـود الهندية** ومـا تبعها من فلسـفات حديثة[1] .. وكلها فلسـفات تبدأ من الأرض..من الحواس الخمس .. **ولا تعترف بالغيبيات .. وتلغى الثنائية بـين المخلوق والخالـق ..فكل المخلوقات هى عين الخالق** .. إنه إله يشـبه النور الأبيض؛ واحد وبسيط.. لكنه يحوى فى داخله ألوان الطيف السبعة.

وعشت سنوات فى هذا الضباب الهندى وهذه الماريجوانا الصوفية، ومارست اليوجا وقرأتها فى أصولها وتلقيت تعاليمها على أيدى أسـاتذة هنود، وسـيطرت على فكرة تناسخ الأرواح مدة طويلة[2].

وانقشع الضباب،

نسيج واحد يعنى خالق واحد

ثـم بدأت أفيق على **حالـة من عدم الرضا وعدم الاقتناع**. وأدركت بينى وبين نفسى أن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط. ومرة أخرى كان العلم هو دليلى ومنقذى ومرشدى، لقد قالت لى **الشريحة الحية تحت المجهر (الميكروسكوب)** شيئًا آخر.

كانت وحدة الوجود الهندية عبارة شعرية صوفية تشعرك بالنشوة.. ولكنها غير صادقة..! إن الحقيقـة المؤكـدة التى يقولها العلـم إن **هناك وحـدة فى الخامة لا أكثر** .. وحـدة فى النسـيج والسـنن الأولية والقـوانـين .. وحدة فى المادة الأولية التى بُنى منهـا كل شىء .. فكل الحياة من

(1) فلسفة سبينوزا، وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاقة.

(2) تعنى هذه الفكرة أن الروح تحل بعد موت الإنسـان فى جسـد إنسـان آخر أفضل (إن كان من أهل الخير) أو إنسـان شـقى أو حيوان (إن كان من أهل الشر). وتجسـدت هذه المرحلة من حياة د. مصطفى محمود فى روايَتَىّ العنكبوت والخروج من التابوت.

نبـات وحيوان و إنسـان بنيت مـن تواليف الكربون مـع الهيدروجين والأوكسـجين .. ولهذا تتحول كلها إلى فحم بالاحتراق .. وتقوم كل صنوف الحياة على **الخلية الواحدة ومضاعفاتها**.

كذلـك نتعلم من الفلـك والفيزياء والكيميـاء والعلوم النووية أن الكربـون ذاته وجميع العناصر المختلفة جاءت من طبخ عنصر واحد فى باطن الأفران النجمية الهائلة هو **الهيدروجين**، الذى يتحول إلى هليوم وكربون وسـليكون وكوبالـت ونيكل وحديد **إلى آخر قائمة العناصر**، وذلك بتفكيكه و إعادة تركيبه فى درجات حرارة ووضغوط هائلة.

ويَـرُدُّ هذا جميـع صنوف الموجـودات إلى **خامة واحـدة** .. إلى فتلة حريرية واحـدة.. غُزِل منهـا الكون فى تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفـة. والاختلاف بين صنف وصنف وبين مخلوق ومخلوق هو **اختلاف فى العلاقات الكيفية والكمية**.. فى المعادلة والشفرة التكوينية .. لكن الخامة واحدة .. وهذا سر الشعور بالنسب والقرابة والمصاهرة وصلة الرحم بين الإنسان والحيوان، وبين الوحش ومروضه، وبين الأنف التى تشم والزهرة العاطرة، وبين العين ومنظر الغروب الجميل.

هذا هو **سر التناغم والانسجام**. إن **كل الوجود أفراد أسرة واحدة من أب واحد**. وهو أمر لا يستتبع أبدًا أن نقول إن الله هو الوجود، وأن الخالق هو المخلوق. أدركت أن **وحدة الوجود الهنديـة** شـطحة صوفية خرافية .. وهى تبسـيط وجدانى لا يصادق عليـه العلم ولا يرتاح إليه العقل. والأمر شـبيه بحالة الناقد الذواقة الذى دخل معرضًا للرسـم، فاكتشف وحدة فنية بين جميع اللوحات .. فجميعها مرسـومة على الخامة نفسـها .. وبذات الألوان.. وأكثر من هذا أن أسـلوب الرسـم واحد. النتيجة الطبيعية أن يقفز إلى ذهن الناقد أن **راسـم جميع هذه اللوحات واحـد**.. ربما كان بيكاسـو أو شـاجال أو موديليانى .. مثلًا .. **فالوحدة بـين اللوحات تعنى أن راسمها واحد، ولكنها لا تعنى أبدًا أن هذه الموجدات هى ذاتها الموجِد**.

إن **النظـرة العلمية** المتأملة لظواهر الخلـق والمخلوقات تقول إن هناك وحدة بينها .. وحدة أسـلوب ووحدة قوانـين ووحدة خامات، تعنى جميعها أن **خالقهـا واحد** لم يشرك معه شريكًا يسمح بأسلوب غير أسلوبه، سبحانه الخالق البارئ المصور.

التوازن العظيم

فى رحلاته عبر الزمان وعبر المكان، ومع الذرة والكون والحياة، ومع بنية جسـم الإنسـان

ووظائفه، كانت عينا د. مصطفى محمود دائمًا على ما فى هذه العوالم من توازن رهيب، توازن لو اختل بجزء من ألف جزء أو مليون أو مليار لما أمكن لهذه العوالم أن تقوم. ويعلق د. مصطفى محمود على هذا التوازن قائلًا:

إن القول بأن كل هذا الاتساق والنظام **حدث بعشوائية وصدفة** هو السذاجة بعينها. كقولنا إن انفجارًا فى مطبعة أدى إلى أن تتراص الحروف على هيئة قاموس محكم.

والكيميائى المغرور الذى قال آتونى بالهواء والماء والطين وظروف نشأة الحياة الأولى وأنا أصنع لكم إنسانًا، هذا الكيميائى قرر احتياجه سلفًا لكل العناصر والظروف، وهو اعتراف بالعجز عن تقليد صنعة الخالق الذى خلق كل شىء وخلق ظروفه أيضًا. ولو أنا أتيناه بما طلب، ولو أنه فرضًا وجدلًا استطاع أن يخلق إنسانًا... فإنه لن يقول.. صنعته الصدفة... بل إنه سوف يقول.. **صنعته أنا**.. إذًا لا بد من صانع.

والكلام عن **القرد الذى يجلس إلى آلة كاتبة** لمدى اللانهاية من الزمان ليدق لانهاية من المحاولات، وكيف أنه لا بد يومًا ما أن يدق بالصدفة بيتًا لشكسبير أو جملة مفيدة، هو كلام مردود عليه[1].

هذا التوازن العظيم والاتساق المذهل والتوافق والتلاحم والانسجام الذى يتألف من ملايين الدقائق والتفاصيل يصرخ بأن **هناك مبدعًا لهذه البدائع**، وأنه **إله قادر جامع لكل الكمالات**. إنه الإله الذى وصفته الأديان، وليس القانون الأصم الذى تقول به العلوم المادية البكماء.. ولا إله أرسطو المنعزل. ولا إله أفلاطون القابع فى عالم المُثل.. ولا هو الوجود المادى بكليته كما تصور أتباع وحدة الوجود.

غَرَقَ العلمُ فى الغيبيات

عندما قلنا للعقل العلمى إن الله عَزَّوَجَلَّ ليس محدودًا ولا يقع فى مدى الأبصار.. وإنه اللانهاية.. وإنه الغيب، أجابنا: إنه لهذا لا يعترف بالإله، فليس من العلم الإيمان بالغيب، **فمجال العلم هو المحسوس**، به يبدأ وإليه ينتهى.

نقول للعقل العلمى: كذبت، إن نصف العلم الآن أصبح غيبًا!

(1) فندنا هذا الادعاء فى الفصل العاشر عند نقدنا لمفهوم «الانتخاب الطبيعى التراكمى».

فعندما اكتشف نيوتن **الجاذبية، فسرت لنا الكثير**.. وقوع التفاحة من شجرتها، وصعوبة تسلق الجبل، وصعوبة رفع الحجر الكبير، وتعلُّق القمر فى السماء.. إنها نظرية فسرت لنا الواقع.ومع ذلك فهذه الجاذبية غيب لا أحد يعرف كنهها.. نيوتن نفسه يقول فى خطاب إلى صديقه بنتلى: **إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس تؤثر على مادة أخرى وتجذبها مع أنه لا توجد بينهما أية علاقة.** فها هى أصبحت نظرية علمية نتداولها ونؤمن بها ونعتبرها علمًا.. وهى غيب فى غيب.

كذلك الإلكترون والموجة اللاسلكية والذرة والنيترون، **لم نر منها شيئًا ومع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاء بآثارها**، ونقيم عليها علومًا متخصصة ونبنى لها المعامل والمختبرات.. وهى غيب فى غيب .. بالنسبة لحواسنا.

العلم لم يعرف «**ماهية**» أى شىء على الإطلاق. ونحن لا نعرف إلا **أسماء**.. نحن نتبادل مصطلحات دون أن نلمس لها كُنهًا. والله عَزَّوَجَلَّ **عَلَّمَ آدم الأسماء** فقط **ولم يعلمه المسميات** ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ... ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة]، وهذه هى حدود العلم.

نحن فى عصر العلم الغيبى والضرب فى متاهات الفروض. **وليس للعلم الآن أن يحتج على الغيبيات بعد أن غرق إلى أذنيه فى الغيبيات.**

وأولى بنا أن **نؤمن بعالِم الغيب**.. خالقنا البر الكريم.. الذى **نرى آثاره** فى كل لمحة عين وكل نبضة قلب وكل سبحة تأمل.

هكذا قدم لى العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله عَزَّوَجَلَّ.

دليل الروح والنفس والجسد

يقول د. مصطفى محمود: أثناء دراستى للتشريح، كنت أتصور أنى **يمكن أن أفهم الروح إذا شَرَّحت الجسد** وأن لا فرق بين الإثنين؛ الروح هى البدن.. والعقل هو المخ.. **والشخصية** هى ردود الفعل ومجموع الأفعال المنعكسة.. **والعاطفة** فى نهاية الأمر جوع جسمانى. وكان ذلك يعنى أن النفس ما هى إلا مجرد حوافز الجوع والجنس ومجموعة الاستشعارات التى يدرك بها الجسد ما يحتاج إليه.

ثم تنبهت أن الإنسان يضحى بلقمته وبيته وفراشه الدافئ فى سبيل أهداف ومُثُل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والخير والحرية.. فأين حوافز الجوع والجنس هنا؟!.. والمحارب فى الميدان يضحى بنفسه على مدفعه فى سبيل غد لغيره لم يأت بعد.. أين هذا من التفسير المادى؟! إننا أمام إثبات قاطع **بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية على الجسد،** وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة فى مرآة داخلية.

وإذا كنت أنا الجسد، فكيف أتحكم فى الجسد وأُخضعه؟ **إن الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هى الشهادة الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالى والمفارق الذى تتألف منه الذات الإنسانية.**

إن تلك الإرادة الهائلة التى تضحى بالجسد لا بد أن تكون حقيقة عالية بطبيعتها **وآمرة ومهيمنة عليه. عن طريق النفس أتحكم فى الجسد، وعن طريق العقل أتحكم فى النفس، وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده. إن هذا التفاضل بين وجود مادى ووجود يعلو عليه** ويحكمه هو الإثبات الواقعى الذى يقودنا إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه، وليست ذيلًا وتابعًا تموت بموته.

وتعتبر **عملية الإدراك والوعى** عند الاستيقاظ من النوم إثبات أكيد بأن **هناك شيئين فى كل لحظة.. الشىء المدرَك، والنفس المدرِكة خارجه.** وإنه لقانون معروف إن **التغير لا يمكن رصده إلا من خارجه،** لذلك لا يمكننا رصد حركة الأرض ونحن نسكن عليها وإنما نستطيع رصدها من القمر.

وهكذا دائمًا.. لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا وقفت خارجها ولاحظتها كموضوع.. لذلك لا تستطيع أن **تدرك مرور الزمن إلا إذا كانت ذاتك المدركة خارج الزمن.** وهذه نتيجة مذهلة تثبت **الروح أو الذات المدركة كوجود مستقل متعال على الزمن ومتجاوز له وخارج عنه.**

ها نحن أولاء أمام **ثنائية إنسانية حقيقية،** جزء منها **غارق فى الزمن** ينصرم معه ويكبر معه ويشيخ معه ويهرم معه، وجزء منها **خارج عن هذا الزمن** يلاحظ الجسد من عتبة السكون ويدركه دون أن يتورط فيه، ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم.. ويوم يسقط الجسد ترابًا سوف يظل هذا الجوهر على حاله حيًا حياته الخاصة غير الزمنية.. ولا نجد لهذا الجوهر اسمًا غير الاسم الذى أطلقته الأديان وهو **الروح.**

ونحـن حينما ندرك الجمال ونميزه عن القبح، وندرك الحـق ونميزه عن الباطل، وندرك العدل ونميزه عن الظلم.. فنحن فى كل مرة نقيس بمعيار .. بمسطرة منفصلة عن الحادث الذى نقيسه.. فنحن إذن نقيس من العتبة نفسها.. **عتبة الروح**.

وحينـما نعيـش حياتنا لا نضـع اعتبارًا للموت ونتـصرف فى كل لحظة دون أن نحسـب له حسابًا.. **وننظر إلى الموت كأنه اللامعقول**.. فنحن في الواقع نفكر ونتصرف بهذه الأنا العميقة التـى هى الـروح والتى لا تعرف الموت بطبيعتها. فالموت بالنسـبة للـروح التى تعيش خارج الزمن ليس إلا تغيير ثوب.. لا أكثر من انتقال.. أما الموت كفناء وكعدم فهو أمر لا تعرفه.

الروح، تلك النقطة المركز داخل الدائرة. الذى تدور حوله أحداثنا الدنيوية الزمنية، وهو شاخص فى مكانه لا يتحرك ولا ينصرم له وجود.

الروح.. حقيقتنا المطلقة التى هى برغم ذلك لغز.

ونختم هذه الجولة مع رحلة د. مصطفى محمود الإيمانية **بتشـخيصه النهائى لما يعانيه شـبابنا المعاصر من شكوك** تجسد الانهزامية التى يعانى بعضهم منها، انظر إليه وهو يقول:

لم يكـن العلم الحـق أبدًا مناقضًا للدين بـل دال عليه، وإنما **نِصفُ العلم هو الـذى يوقع العقل فى الشـبهة والشـك**.. وبخاصة إذا كان ذلك العقل مزهوًّا بنفسـه معتدًّا بعقلانيتـه.. وبخاصة إذا دارت المعركة فى عصر يتصور فيه العقل أنه كل شىء.. وإذا حاصرت الإنسان شواهد حضارة مادية صارخة تزأر فيها الطائرات وسفن الفضاء والأقمار الصناعية، هاتفة كل لحظة. **أنا المادة. أنا كل شىء**.

رحلة د. عبد الوهاب المسيرى

أختم هذه الجولة برحلة د. عبد الوهاب المسيرى الإيمانية، فهى الأعمق دون شك، كما أنها الأشـد تأثيرًا فى فكرى وشخصيتى، وربما يرجع ذلك لعلاقتى الشخصية به، ولإلمامى بأطراف هـذه الرحلة بعد أن أَلَّفْتُ عنها كتابًا بعنوان «**رحلة عبد الوهاب المسـيرى الفكرية، قراءة فى فكره وسيرته**»[1].

(1) هـذا العـرض مأخوذ عن هذا الكتاب. نشرته الهيئة العامة لقصور الثقافـة التابعة لوزارة الثقافة بمصر، ثم دار نشر نيوبوك.

بذور الشك

يقول د. المسيرى: حينما كنت فى السنة النهائية فى مدرسة دمنهور الثانوية، وأنا بعد فى السادسة عشرة، بدأت بعض الأسئلة الأساسية تهاجمنى بإلحاح شديد، من أهمها أسئلة عن **أصل الشر فى العالم والحكمة من وجوده، وعن أصل الكون والإنسان**. وشهد هذا العام بداية دراستى **لمادة الفلسفة**، التى خلبت لبى تمامًا، وساعدتنى على تنويع أسئلتى وتعميقها وصياغتها بطريقة متبلورة.

لم يكن أحد من **أعضاء أسرتى** قادرًا على تقديم أجوبة شافية لهذه التساؤلات، فمعظمهم كان يصلى ويصوم بحكم العادة والتقاليد. أما **أقرانى** فلم يكونوا فى مستوى الفكرى، ولذا عجزوا أيضًا عن محاورتى. وهذا ما جعلنى أشعر بأن **الإيمان الدينى مسألة جبن وإحجام عن التساؤل** وهذا ما لا يقبله من كان فى سنى.

وفى النهاية، ذهبت إلى **مدرس اللغة العربية (والدين)** أسأله، فأجاب بأن هذا العالم المخلوق لا بد أن يكون له خالق، وبذا فالأمور واضحة تمامًا، وهنا سألته ومن خالق الشر؟ فقال إن **العقل يعجز عن إدراك مثل هذا**، وتركنى وحيدًا مع إجاباته البسيطة السهلة التى لم تشف لى غليلًا، بل قوَّضت من إيمانى. وانتهى بى الأمر أن أعلنت أننى لن أصلى ولن أصوم إلى أن أجد إجابة عن أسئلتى.

ثم اتسعت دائرة الحوار مع **بعض المثقفين** بعد التحاقى بجامعة الإسكندرية. وكان فى **كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية (الذى التحقت به)** مجموعة من الأجانب ممن لا يحجمون عن مناقشة مثل هذه الأمور بحرية بالغة، مما أتاح أمامى الفرصة لطرح المزيد من الأسئلة إلى أن **أصبح الشك مكونًا أساسيًّا فى رؤيتى**.

فراغ لم تملؤه إلا الماركسية

خلق ما اعترانى من شك فراغًا فى نفسى، فلم يعد من الممكن قبول الأُطر القديمة، وكان لا بد من أن يُملأ هذا **الفراغ العقائدى** (أو الأيديولوجى)، وبما أننى كنت ثائرًا ضد **الظلم الاجتماعى**، كان من الحتمى تقريبًا أن أتوجه للماركسية.

كان اهتمامى بالماركسية **فكريًّا** (من خلال القراءة) فى بداية الأمر، إلى أن التقى بى أحد أعضاء حدتو (الحزب الشيوعى) **وجنَّدنى** عضوًا فى الحزب عام 1955. ثم تم تصعيدى إلى مستويات أعلى فى الحزب نظرًا لمعرفتى باللغة الإنجليزية وبالمصادر الأولية للفكر الماركسى.

سلوك الرفاق انتشلنى من الماركسية!

بعد فترة، بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصى للرفاق كان **متناقضًا مع جميع القيم الدينية والإنسانية**، وأن **النرجسية** (الإعجاب بالذات) كانت متضخمة عند بعضهم للغاية، كما كانت **الحريات الأخلاقية** التى يسمحون لأنفسهم بها كاملة. كذلك كانت ماركسية بعضهم تنبع من **حقد طبقى أعمى** وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل فى الأرض، بل كثيرًا ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسيًّا بحكم وضعه الطبقى وحسب، وأنه لو سنحت له الفرصة للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد وطلَّق ماركسيته طلاقًا بائنًا.

كذلك كانت صفوف الحزب تزخر بالأجانب وبأعضاء الجماعات اليهودية وبالحماسة للحرب ضد فرانكو فى إسبانيا مع **إهمال الجهاد ضد الصهاينة فى فلسطين**!، فقد كان هذا الجهاد يُعَدُّ سقوطًا فى قبضة الرجعية العربية، وكان حل الصراع العربى الإسرائيلى - فى تصورهم - هو التحالف بين العمال والفلاحين اليهود والعرب ضد الرأسماليين والإقطاعيين العرب واليهود[1]!.

لكل هذا **قدَّمت استقالتى**، وطلبت أن أُعَدَّ من أصدقاء الحزب لا من أعضائه.

عودة الوعى

يمكن تلخيص «الرحلة الوجودية والفكرية» فى حياة د. المسيرى فى خمس مراحل:

- **هيمنة النموذج المادى الفلسفى (الأفكار المادية)** عليه، بعد أن اجتاحه الشك فى دمنهور ثم الإسكندرية[2].

(1) يحكى د. المسيرى نقلًا عن أحد الرفاق الفلسطينيين ما حدث له مع مجموعة من الشيوعيين المتطرفين الغربيين الذين حضروا إلى معسكر تدريب الفدائيين. فعندما بدأ الرصاص ينهال عليهم، بتدبير سابق، تصرفوا مثل أى بشر، أى اختبئوا تحت السيارات، ولكن ما فاجأه هو أن كل واحد منهم بدأ يتلو أدعية دينية ويطلب العون من الإله!.

(2) ناقشنا هذا النموذج كما يرصده د. المسيرى فى آخر الفصل الأول، تحت عنوان «متتالية الفكر المادى والحضارة المادية ثم الإلحاد». ورأينا كيف **تقود هذه المتتالية إلى الإلحاد**.

- ثم إدراكه التدريجى **عجز النموذج المادى عن الإحاطة بالإنسان**، نظرًا لبساطة هذا النموذج وسذاجته واختزاليته.
- ثم إحساسه المتزايد **بتركيبة الإنسان وثنائيته** (المادة والروح).
- ثم الإقرار بأن **إنسانية الإنسان التى مصدرها عنصر غيبى (الروح) لا يفسرها إلا وجود الإله**.
- ثم النظر فى الديانات السماوية والشرقية **واختياره الإسلام دينًا**.

يقول د. المسيرى واصفًا هذه الرحلة: لقد كانت رحلتى من الإلحاد إلى الشك ثم إلى الإيمان رحلة عقلية صِرفة، كان محركها الأول تأملى لطبيعة الإنسان المركبة. ولم يكن انتقالى من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية عملية سهلة، فأنا لم أدرك بسهولة أن هناك قانونين: أحدهما للإنسان والآخر للمادة، وليس قانونًا ماديًّا واحدًا يسرى على كليهما. لقد كان الانتقال عملية طويلة شاقة استمرت أكثر من ربع قرن، **فالفلسفة المادية فلسفة مريحة، تختزل الواقع وتختزل الوجود الإنسانى فى قوانين المادة، ولذا فهى قادرة على تزويد الإنسان بأجوبة واقعية وسريعة ومريحة.**

مقدمات العثور على الذات

بالرغم من اقتناع د. المسيرى العقلى بالإلحاد، فقد كان الشعور بتجاوز الإنسان للمادية **كامن دفين فى وجدانه**، وقد ساعدت عدة عوامل هذا الشعور على التبلور والتجسد، ويعرضها د. المسيرى قائلًا:

1- أُلقيت **بذور التراحم** فى تربتى الفكرية خلال نشأتى فى المجتمع التقليدى فى دمنهور، وقد روتها **ثقافتى الإسلامية** التى تلقيتها وقتئذ.

2- **يُعتبر الأدب** (الذى توجهت لدراسته)، هو التخصص الوحيد الذى لا يزال **يتعامل مع الإنسان بوصفه كائنًا مُركَّبًا** لا يمكن تفسيره فى ضوء عنصر أو عنصرين (على عكس الاقتصاد، على سبيل المثال، الذى يدرس الإنسان، فى معظم الأحوال، فى إطار المعطيات الاقتصادية وحسب).

3- حينما قررت **الارتباط بالدكتورة هدى**، ظهر تناقض بين النموذج المهيمن علىَّ (الفكر المادى) وبين **العاطفة** وما ينبنى عليها من سلوك وتضحيات.

4- حينـما **رزقنى الله ابنتـى نور**، وجدت نفسى أنا العقلانى المادى أواجه معجـزة جعلتنى أغرق فى التأمل. طفلـة تولد، وبعد ولادتها بلحظات تنظر بعينيها الواسـعتين حولها. ووجـدت **زوجتى** تتحول بين يوم وليلـة إلى أم تطعـم الصغيرة بثدييهـا وترتبط بابنتها ارتباطًا جنونيًّا لم أرَ مثلـه. زميلتى فى الجامعة والتى كنت أذهب معها إلى السينما والرحلات أصبحت أمًّا ودخلت عالمًا جديدًا أقف أنا على أطرافه دَهِشًا، وأحسست بالهجران. ثم فوجئت بأن زوجتى قررت ألا تستمر فى دراستها العليا؛ لأنها لا تريد أن تحرم ابنتها من حق ممارسـة كل وظائفها البيولوجية بما يتفق مع إيقاعاتها الجسـدية ويريحها عصبيًّا. **فزعت من نفسى** ساعتها لأننى لم أفكر فى هذا، ولم أفكر إلا فى الأداء والإنجاز المادى فى رقعة الحياة العامة.

وبـدأت أتأمـل فى هـذا **الكائن الجديد الـذى دخل حياتى**: هـل يمكن أن يكـون نتيجة تفاعلات كيميائية وإنزيمات وغدد وعضلات فقط؟ هل هذا الإنسان هو جماع أعضائه المادية وثمرة المصادفة، أم أن هنـاك شـيئًا مـا يجاوز السـطح المادى؟ هل الإنسـان فعلًا جزء مـن الطبيعة، خاضـع لقوانينها وأهوائها، أم أن فيه أسرارًا وأغوارًا؟، لقد **أصبحت ظاهرة الإنسـان بالنسـبة لى ظاهرة غير مادية غير طبيعية، معجزة بكل المعايير المعروفة لدى**.

5- ثمة ليلة لن أنساها أبدًا، أسميها «**ليلة بكاء الطفلة**»، إذ استيقظت ابنتنا نور وهى لم تكمل عامين بعد، وأخـذت تبـكى بصوت عال، مزيـج من الفزع والحزن لم ندرك سـببهما، كلما حملتهـا أمها على كتفها سكتت، ولكن إذا اقتربْتُ منها تصرخ بأعلى صوتها، وظلت أمها معها إلى أن نامت. لقد أدركت بعضًا مما فى داخلنا من أسرار وأدركت مدى احتياجنا للأم.

6- عندما **رزقنا الله ابننا ياسر**، تصورت أنا وزوجتى أننا تدربنا على تنشـئة الأطفال، وإذا به مختلف تمامًا عـن أخته وتطلبت تنشـئته مهارات جديـدة. فابنتنا نور تحـب التجريب ولا تخشـاه وتتميز بقدراتها اللغويـة، أما ياسر، فيكره التجريب ويعيش فى عالم الأرقام. ونتيجة لهذا الاختلاف، ترسـخ اعتقادى **بالإنسـان المعجزة الذى يجاوز العوامل الوراثية والبيئية** التى يتفق فيها ياسر مع نور. كما بدأت أدرك **أهمية الأسرة فى عملية التنشـئة**، وتسـاءلت، كيف يمكن للموظف المختص بتنشئة الأطفال فى المجتمع الشيوعى ـ مهما بلغ من تخصص ـ أن يدرك الاحتياجات النفسية للطفل، والتى تختلف من طفل لآخر.

7- ثـم كان لقـائى مع سـيرة **الزعيم المسـلم مالكولم إكس**[1] الـذى كان يعمل قـوادًا ومهربًـا للمخدرات. وحينما دخل السجن، أقنعه المسلمون السود بالإسلام، وبدأت حياته فى التغير. فبدأ يدرك **عالمية الرؤية الإسـلامية للإلـه (رب العالمين)**، وأنه بعيـد كل البعد قريب كل القرب فى آن واحـد، كما أدرك الطبيعة الجماعية للإسـلام (فى مقابل الفرديـة الأنانية فى المجتمع الأمريكى). وفى أثناء حجه إلى مكة، اكتشـف

(1) Malcolm X: (1925 - 1965)، أمريكى أفريقى مسـلم، من دعاة حقوق الإنسـان، ويُعد أحد أهم الأمريكيين من أصل أفريقى فى تاريخ أمريكا. وبينما هو فى السجن التحق بجمعية أمة الإسلام، التى سرعان ما صار زعيمًا لها، وقد قتله المتعصبون البيض قبل أن يُكمل العام الأربعين من عمره.

مالكوم إكس إمكانية تحقيق المساواة بين البشر، فتجاوز كرهه للبيض، وعاد إلى الولايات المتحدة لينظم حزبًا جديدًا يجمع بين البيض والسود فى رفض المادية، فحصدته رصاصات التمييز العنصرى الغادرة.

ما أروعك أستاذى المسيرى؛ أمور تمر علينا مر الكرام، نحسبها بديهيات الحياة، فإذا بك **تعتصر منها رحيق الإيمان الذى يُسكر القلب وبراهين الألوهية التى تُسجد العقل.**

محطات فى رحلة الإيمان

يقول د. المسيرى: مررت فى سبيل تحقيق التحول من الإلحاد إلى الشك إلى الإيمان بعدد من المراحل، **وكنت أجاهد للبقاء فى كل مرحلة وصلت إليها** ـ حتى أظل أقرب للمادية ـ ولا أفارقها إلى غيرها إلا مضطرًا، بعد أن تعجز عن الإجابة عن تساؤلاتى وتفشل فى الحفاظ على طمأنينتى النفسية.

المرحلة الأولى: أدركت تركيبية الظاهرة الإنسانية

بَدَأَت **«المرحلة الأولى»** عندما لاحظت أن **بعض الكتابات الأدبية والفلسفية الغربية** (وخصوصًا تلك التى توصف بأنها «صوفية») تقع فى خلط شديد، إذ **لا تُفَرِّق بين «الروحى» و«المادى»**. فمن الشائع فى الولايات المتحدة أن يصف أحدهم **زيارته للمتحف أو للمطعم أو لعرض مسرحى أو غنائى** (بل وتجربته الجنسية) بأنها كانت **تجربة «روحية»**. لقد اكتشفت أن هؤلاء يتبنون **«روحانية مادية»** تتحد فيها الروح بالمادة والمقدَّس بغير المقدس. إن **ثنائيتهم زائفة** لا تمثل اختلافًا حقيقيًّا بين عنصرين، إنما اختلاف فى التسمية فقط.

إنه **نفس الفكر الكامن وراء الرأسمالية الاستهلاكية والإمبريالية والفلسفات الفاشية**[1]، فكلها تعلن أن الفردوس هنا (اليوتوبيا التكنولوجية)[2]! أدركت أن هذا الفكر يؤمن بانتصار المادة وإلغاء استقلال الإنسان عن النظام الطبيعى المادى، ويدعى أن ذلك يحقق للإنسان كل أشكال النعيم!.

حينئذ تخليت عن نظرتى للعالم باعتباره وجودًا واحديًا ماديًّا بسيطًا يقوم فقط على العلاقات الاقتصادية، **وانتقلتُ من سذاجة المادية واختزاليتها إلى إدراك تركيبية الظاهرة الإنسانية.**

(1) الفاشية Fascism؛ حكم استبدادى يقوم على التعصب القومى، كالنازية والصهيونية.
(2) تعنى أن التكنولوجيا تحقق للإنسان حلم المدينة الفاضلة والفردوس الأرضى.

المرحلة الثانية: تبنيت العنصر الكونى

اضطـرنى الإقـرار بخصوصية الإنسـان إلى **البحـث عن مفاهيـم ثابتة فى عالم المـادة تؤكد استقلاليته وحريته وقداسته، وتحتفظ به فى الوقت نفسه داخل الإطار المادى، ويالها من مفارقة!** ولعـدم تقبـلى وجود «**العنصر الربانى**» فى الإنسـان آنذاك، فقد تبنيت مـا أطلقتُ عليه «**العنصر الكـونى**». **والعناصر الكونية هى «مفاهيم معنوية مبهمة» توجد داخل عالم المادة، واسـتقر فى فهم الإنسان عبر التاريخ أنها تحقق مصلحته.** وقد أشعرنى ذلك بقدر من **خصوصية الإنسان.**

مـن **أمثلة العناصر الكونية** التى تبنيتها لفـترة «**أهمية الاتزان والتفاهم مع الطبيعة**». فقد لاحظت أن الإنسـان باسـم «التقدم» يسـتهلك موارد الطبيعية بسرعة فائقة وغير رشيدة، مما يـؤدى بنا إلى الهلاك: بيئـة ملوثة، عالم نتنافس فيه على المواد الخـام، كوكب أقرع لا خضرة فيـه، أنهار تحمل الأحماض القاتلة بدلًا من الميـاه الصافية، هواء يحمل كميات محترمة من أول أوكسـيد الكربـون. وحينما أقرأ جريـدتى اليومية فى الصبـاح، أتذكر كمية الأشـجار التى قطعتها الفأس الصناعية العلمية لتزودنى بكم هائل من الأخبار أنا فى غنى عنها، فقد سـمعتها فى النشرة الإخبارية. لقد أدركت أن التقدم العلمى سيؤدى إلى ورطة كونية، ولا يمكن الوقوف ضـد هذا الاتجـاه إلا بالإيمان بمفاهيم اسـتقرت فى أنفسـنا عبر التاريخ، تؤكـد **أهمية الاتزان والتفاهم مع الطبيعة.**

كذلك لاحظت أن هذا الاسـتنزاف امتد إلى داخل الإنسان نفسه. فقد بدأ الإنسان يفقد ذاته ويعيش فى غيبوبة كاملة من المخدرات والشذوذ الجنسى، وشرع فى إجراء تجارب تؤدى حتـمًا إلى خلق أمسـاخ من البشر. عنـد ذلك تنبهت إلى مبدأ **تَرَسُّـخ عبر التاريـخ، وهو «أن الإنسان الواعى خير من الإنسان الذى يفقد رشده، وأن العلاقة الجنسية المثلى هى العلاقة بين الرجل والمرأة وليس بين فردين من نفس الجنس».**

كذلـك يُعتـبر **اهتمامـى بالتاريخ** مثالًا لمفهـوم «العنصر الكـونى»، **فالتاريـخ من صنع الإنسـان** وليس من صنع الطبيعة/المـادة. وقد ترجم هذا الاهتمام نفسـه إلى «**ضرورة تأكيد الهويـة القوميـة**». وللتعبير عن هـذه الهوية بدأت فى تغيير بعض معـالم حياتى. فكنت، على سبيل المثال، أرتدى جلبابًا ريفيًّا فى الحفلات التى تُقام لتوديعى فى الولايات المتحدة إعلانًا عن أن عودتى لوطنى ليست عودة جسدية وإنما عودة روحية.

ولعـل **عدائى للصهيونيـة** ينبع من أنها أيديولوجيـة تنكر التاريخ، وبالتالى تعادى الإنسـان والقيم، ولذا **تبنيت القضية الفلسطينية** التى تحولت إلى القضية المحورية فى حياتى؛ فهى **قضية**

ذات مضمون أخلاقى واضح لا يمكن التفاوض بشأنها (عنصرًا كونيًّا)، ولا يمكن للإنسان أن يرفضها إلا من منظور داروينى مادى شرس (البقاء للأقوى).

المرحلة الثالثة: أدركت فطرية الخير

كنت ألاحظ **أن معظم البشر برغم ما فيهم من شرور يحوون قدرًا كبيرًا من الخير**، مما طرح علىَّ تساؤلات: **كيف نفسر هذا الخير؟** هل الإنسان الطبيعى/المادى قادر على إتيان أفعال الخير؟ لِمَ أفعل الخير وأتحاشى الشر؟ **على أى أساس يمكن أن نحكم على الأشياء؟** لماذا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر؟ هل هناك معروف وهل هناك منكر؟ **وحينما يسقط كل شىء فى قبضة الصيرورة (الإقرار بالأمر الواقع) ألا يصبح كل شىء مباحًا؟...**

ولاحقتنى الأسئلة تطاردنى وتنهكنى وكادت تقضى على، خاصةً حينما أقوم بفعل فاضل يكلفنى الكثير. أمر مُرهِق حقًّا أن يفكر المرء بتوتر فى كل موقف يواجهه، ليحكم عليه فى ضوء نموذجين متناقضين يتصارعان داخله؛ أحدهما مادى والآخر إنسانى، ثم يقرر ودون سبب واضح أن يختار الثانى دون الأول. وقد استمر بحثى المحموم لمدة ربع قرن قبل أن أصل إلى ما وصلت إليه من قناعات إيمانية.

ربما أعاننى على الإجابة عن هذه التساؤلات **قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج**[1]، وهى **من الشعر الرومانتيكى**[2]. وتحكى القصيدة قصة ملاح يتسم بسطحية الماديين ونفعيتهم، فيصرع طائر القطرس الأبيض (رمز الجماعة الإنسانية والمحبة، وأيضًا رمز الإله)، عندئذ يواجه عالمًا ماديًا بلا إله، لا رحمة فيه ولا محبة، وتصبح الحياة خرابًا يبابًا وتتوقف سفينته عن الإبحار، بل تتعفن المياه ذاتها. وبالتدريج يكتشف الملاح **أن عالم المادة وحسابات المكسب والخسارة لا تنفع كثيرًا فى عالم الإنسان**. عندها يتحول عالمه من مادة محضة إلى **عالم تسرى فيه الروح والقداسة**، فيدرك جمال أصغر المخلوقات البحرية وأكثرها قبحًا ويباركها، ويفقد الرغبة فى السيطرة والتحكم. حينئذ تذهب اللعنة وتحل البركة، بعد أن أثبت مقدرته على الحب وعلى الإحساس بالجمال وعلى الانطلاق من عالم المادة. ويعود الملاح للجماعة الإنسانية بعد طول غربة وعزلة وانفصال. هذه القصيدة تركت فىَّ أثرًا عميقًا وجعلتنى أبحث فى غير المنظور.

(1) Samuel T.Coleridge: (1772 - 1834)، الشاعر والفيلسوف الرومانسى البريطانى.

(2) ظهرت الحركة الرومانسية كرد فعل فى مواجهة مادية الاستنارة الغربية، منذ منتصف القرن الثامن عشر، وقد أثرت فى المجالات الفلسفية والأدبية والشعرية والفنية، وتتميز الحركة بالتوجهات الإنسانية والشعورية والطبيعية.

لقد تنبهت إلى خطورة المادية والنسبية المطلقة **واستحالة أن يعيش الإنسان فى عالمه المادى دون مركـز ودون قيـم ودون مرجعية**. لقـد أيقنت أنه لا يمكن «الحكـم» على شىء ولا يمكن التمييز بين الخير والشر مع غياب الأسـس المعيارية، **فإصدار حكم على شىء ما يتطلب وجود أرضية فلسـفية وأخلاقية تحوى بعض المسلمات والبديهيات المتجاوزة لقوانين المادة والحركة، تجعل بوسعنا الحكم والتمييز**.

المرحلة الرابعة: مصدر «حرية الإرادة»؟

كانت **كتابات جون سـتيورات ميل**[1] ـ الأخيرة بالذات ـ تسـتهوينى، فقناعات فيلسـوف النفعية والليبرالية أخذت تهتز بشـدة فى أواخر حياته، وكان يردد: **«خير لى أن أكون سقراطًا ساخطًا عن أن أكون خنزيرًا راضيًا»**.

فكنـت بدورى أتسـاءل: إذا كان الخنزير يعيـش فى عالم الحواس والمادة، ولا يسـأل عن أى أخلاقيات أو مطلقات، ولا تهاجمه أى شـكوك أو تسـاؤلات، فماذا عن سـقراط؟ لماذا هو ساخط؟ ولماذا نُفَضِّله على الخنزير الراضى؟.

ويجيب الفيلسـوف «لقد صار الخنزير خنزيرًا دون اختيار، أما سقراط فقد شاء ألا يكون خنزيرًا. «**حرية الإرادة**» هى إذن المدخل لعملية التفضيل». ومن ثم فهى الباب لكوننا بشرًا.

عندئذ سألت نفسى: و إذا كانت نشأتنا مادية محضة، **فما مصدر حرية الإرادة هذه؟** بدأت أفكر؛ **هل هى النور الذى يضعه الإله فينا ويُعَبِّر به عن نفسه؟**

المرحلة الخامسة: وداعًا للشك، كتاب «الفردوس الأرضى»

فى كتـابى «**الفردوس الأرضى**» (بدأته عام 1971 وانتهيت منـه عام 1979) عرضت معاناتى وناقشت كل تساؤلاتى. والأهم من هذا، أن **الكتاب ملىء بالإشارات ذات النكهة الدينية**، فعلى سـبيل المثال حينما كتبت عن حركة الهيبيز[2] اختتمـت المقال بهذه العبارة: «حقًّا إن الصمت

(1) John Stuart mill: (1806 - 1873)، الفيلسوف والاقتصادى والسياسى البريطانى، من دعاة حقوق الإنسان.

(2) **حركـة الهيبيـز** Hippies: ظاهـرة اجتماعية كانت بالأصل حركة شـبابية بـدأت فى الولايات المتحدة فى سـتينيات وسبعينيات القرن العشرين. وتُعتبر حركة مناهضة للقيم الرأسمالية، واحتجاج وتمرد على تحكم الكبار وعلى مظاهر المادية والنفعية وثقافة الاسـتهلاك، وتدعو إلى عالم تسـوده الحرية والمسـاواة والحب والسلام. ميزوا أنفسهم عن=

هو قدس الأقداس للمُنتشي الذى يفقد عقله، **أما آدم فقد كان عليه أن يتعلم الأسماء كلها كى يصبح إنسانًا سويًا تخر له الملائكة ساجدين»**.

وتناولت فى الكتاب **لحظة الإشراق والكشف «المادية» الكبرى فى حياة نورمان بودورتز** (المفكر الصهيونى اليهودى)، كما يصفها هو: «لا شك أنه من الأفضل أن تكون ثريًا على أن تكون فقيرًا، من الأفضل أن تعطى الأوامر عن أن تتلقاها، من الأفضل أن تكون معروفًا على أن تكون مغمورًا». ووقفت عند رأيه بأنه عندما يصبح مقال كتبه موضوعًا حادًا للنقاش، فإن الأمر يثير الغبطة فى قلبه، ليس لأن المقال جيد (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)، أو لأنه حقق ربحًا (تجارة يصيبها أو امرأة ينكحها)، وإنما لأن المقال جعل منه موضوعًا للحديث. وهذا هو المهم، أن يظل هو السلعة الرابحة والشيء المطلوب. لقد أصبح هو نفسه «**الإنسان السلعة**»، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبذلك يجسد بودورتز الحضارة الأمريكية، فهو يؤمن بأن **النجاح (الخارجى) هو بالفعل مقياس للقدرات (الداخلية)**. وبذلك تكون الإمبريالية النفسية الأمريكية قد قضت قضاءً مبرمًا على الإنسان الأمريكى وحولته إلى شيء يُقاس.

وفى مقابل ذلك، طرحت فى الكتاب **سيرة الزعيم المسلم الأسود مالكولم إكس**، وبدأت حديثى عنه بهذه العبارة: حينما تغمض عينيك فإنك تبصر؛ لأن الإنسان له بصر وبصيرة، عين حسية (مادية) ترى الأشياء، وأخرى (روحية) تخترق السطح لتصل إلى البنية الكامنة وإلى طبيعة الوجود (ثنائية المادة والروح التى تميز حياة الإنسان الربانى). ونتعلم من مالكولم إكس أن **على الإنسان أن يحلم دائمًا بعالم البراءة الأولى وبذا يحتفظ بقدر من النقاء الروحى. والإسلام بالنسبة لمالكولم هو حلم البراءة هذا، فقد زوده بإطار مثالى حرره من مفاهيم وأخلاقيات مجتمعه المادية** (على عكس بودورتز الذى كان يتعبَّد فى محراب ربة النجاح المادية الأمريكية). لقد أدرك مالكولم أنه عندما كان طائرًا مفترسًا لم يكن ذلك بسبب شرٍّ كامنٍ فيه وإنما بسبب وجوده فى عالم الرجل الأبيض المادى المبنى على التنافس الذى يلتهم فيه الإنسان أخاه الإنسان. لقد رفض بيع روحه لشيطان العنصرية والمادية، فدفع حياته ثمنًا لموقفه هذا.

إن تلك السيرة الذاتية هى حقًّا ترتيلة تمجيد لروح الإنسان القادرة على التحمل، بل على الانتصار.

= المجتمع بإطالة شعورهم وبالملابس المهلهلة والفضفاضة والتجول والتنقل على هواهم كتعبير عن قربهم من الطبيعة وحبهم لها.

المرحلة السادسة: أَذَّنَ المؤذن فأقمت الصلاة

ينتهى كتابى «**الفردوس الأرضى**» **بسماعى صوت المؤذن عند الفجر. أسمع صوته ولكنى لا أقيم الصلاة، فلم يكن قد حان وقتها بعد بالنسبة لى**، ولم أكن قد انتقلت بعد من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان. كنت **أقف على العتبات أتأمل وأتفكر** بلا توقف ولا هوادة. كان على أن أنتظر بضع سنوات أخرى قبل أن أقيم الصلاة، وحينما فعلت، كنت أفعل ذلك فى بداية الأمر **لأعطى ابنى حرية الاختيار بين الشك والإيمان (فقد قرأت أن الشاعر وليام بتلر ييتس**[1] كان ساخطًا على أبيه الملحد لأنه حرمه من المقدرة على الإيمان وجعله بديلًا غير مطروح، ولذلك حينما بدأ يشعر بالحاجة إلى الإيمان بشىء يتجاوز عالم المادة، وهو شعور إنسانى فطرى، **غرق فى الغيبيات** مثل تحضير الأرواح، وانتهى به الأمر إلى أن أسس عالمًا أسطوريًّا كاملًا يشبه الدين فى كثير من الوجوه). كنت **أؤدى صلاة الجمعة مع ابنى**، ولكن فى جامع أثرى، فندرس المسجد وقيمته المعمارية والحضارية بعد الصلاة، ونأخذ معنا كتبًا إرشادية، وكأننى **كنت أريد أن أكون مصليًّا وسائحًا فى الوقت ذاته. ثم فى أوائل الثمانينيات أقمت الصلاة خالصةً لوجه الله**، وأصبح اهتمامى بمعمار المسجد جزءًا من إيمانى وليس مسوغًا له.

وقفات فى ساحة اليقين

هكذا ينظر د. المسيرى إلى الإنسان:

«الإنسان كائن حر يصنع التاريخ،

جزء من الطبيعة ومستقل عنها، ولا يمكن أن يُردَّ إليها،

كائن له منتاجاته الحضارية التى تمنحه خصوصيته القومية والإنسانية،

إنه الإنسان الربانى (فى مقابل الإنسان الطبيعى/المادى)».

وهكذا ينظر د. المسيرى إلى الدين:

«اكتشفت الدين **كنموذج معرفى متكامل وليس مجرد جزء ليس له أهمية فى حد ذاته،**

(1) William B.yeats: (1865 - 1939)، الأديب والشاعر الأيرلندى.

وأدركت أن المكوِّن الدينى ليس مجرد قشرة و إنما هو **من جذور الكيان والهوية**. كما بدأت أشعر أن الدين **ذو فعالية فى الواقع المادى الذى نحياه** وليس جزءًا مغلقًا من عالم الغيب، وهكذا زاد اتساع الهُوَّة التى تفصل «الإنسان الإنسان» عن التصور المادى البسيط، وزاد دور الأفكار (عالم الروح) فى تفسير ظاهرة الإنسان، أى أن الدين أصبح تدريجيًّا فى تصورى **جزءًا من الكيان الإنسانى وليس منفصلًا عنه»**.

وهكذا ينظر د. المسيرى إلى الوجود الإلهى:

«إن وجود الله هو **الضمان الوحيد لوجود الإنسان الإنسان**، بجزأيه المادى وغير المادى، فالله هو الجوهر الذى يتطلع إليه الإنسان لينطلق من طينته. ومن ثَمَّ بغياب الله يتحول الإنسان إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين المادة، التى يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها، وكذلك بغياب الله يتحول الإنسان إلى كم مادى يمكن تفسيره فى إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التى يمكن معرفتها والتنبؤ بها[1]».

رحمك الله سيدى، وألحقنا بك إخوانًا على سُررٍ متقابلين...

القارئ الكريم...

كانت هذه رحلتنا مع أربعة عقول كبار، ومع طَرَقَاتهم المتكررة على باب الحقيقة حتى ولجوا ساحة اليقين. وكما ذكرنا فى بداية الفصل، تُشَكِّل هذه الرحلات الأربع نسيجًا ينتظم معظم جوانب المنظومة الإيمانية.

كانت رحلة **أنتونى فلو رحلة عقلية ليس للإيمان القلبى فيها نصيب**. رحلة رجل تجاوز الثمانين من عمره قضى معظمها فى حظيرة الإلحاد، وكان قطبه الأكبر فى النصف الثانى من القرن العشرين. رجل تتبع الدليل طوال حياته فقاده إلى الإلحاد، ثم عاد وتتبعه مع تقدم السن فقاده إلى الإيمان. لقد انطلقت حجج فلو الإيمانية من تأمل المعانى الفلسفية وراء **نظرية الانفجار الأعظم الذى أنشأ الكون**، ووراء **بنية وطريقة أداء الشفرة الوراثية للكائنات الحية (الدنا DNA) لوظائفها**. ما أعظم عطاء العقل الفلسفى المنصف حين يتأمل بعمق معطيات العلم

(1) مثلًا: إذا تعرضت لموقف كذا، سيكون سلوكك كذا.

الحديث. لقد كانت رحلة أنتونى فلو بحق تجسيدًا لقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

وإذا كانت رحلة أنتونى فلو رحلة عقل لا مكان للإيمان القلبى فيها، ووقفت به عند القول بالألوهية دون الإيمان بدين، فقد كان **للإيمان القلبى** فى رحلة **جيفرى لانج** نصيب كبير، تَمَثَّل فى الرؤيا التى رآها مرارًا طوال عشر سنوات ثم تحققت فى أرض الواقع. وإذا كان أنتونى فلو انطلق فى إيمانه من تأمل كتاب الله المنظور (الكون والأنفس)، فقد كان **لتأمل كتاب الله المسطور (القرآن الكريم)** العطاء الأكبر فى رحلة جيفرى لانج، ومن ثم فإن رحلته **تجاوزت الإيمان بالله** عَزَّوَجَلَّ **إلى الإيمان بالإسلام دينًا وبمحمد** ﷺ **نبيًّا ورسولًا.**

وتُعتبر رحلة **د. عبد الوهاب المسيرى رحلة فريدة** لم أقابل مثلها بين مفكرى الشرق والغرب. وإذا كان **إدراك سلبيات الحضارة المعاصرة** بابًا للدكتور المسيرى لإدراك سوءات الفكر المادى، فقد شاركه فيه آخرون كروجيه جارودى. **أما تأمل الذات الإنسانية وتعبير الأدباء والشعراء عنها** فكان تجربة عميقة فريدة، مكنته من إدراك **ما يتميز به الإنسان من ثنائية** (أقدامنا فى الطين ورءوسنا فى السماء)، فكانت المحرك الأكبر والأَخَص للدكتور المسيرى لإدراك ألوهية مصدر الذات الإنسانية. كذلك كان تواصل السماء مع الأرض من بديهيات الوجود الإلهى، كما كان الإسلام هو الدين الحق الذى يناسب تطلعات وأفكار د. المسيرى كما سنرى فى الفصل القادم.

أما رحلة **د. مصطفى محمود** فقد جسدت بشكل مثالى حيرة الشاكين وحيرة شبابنا، وما تثيره عقولُهم من شكوك وتساؤلات. ويمكن اعتبار هذه الرحلة **مزيجًا من الرحلات الثلاث السابقة**، شاركت كلًّا منها فى منحى من مناحيها؛ فقد **اشتملت على البحث العلمى، والتأملات الفلسفية فى الكون والنفس، وتسليم القياد لعظمة وسطوة القرآن الكريم**. وقد نجح المفكر الكبير فى أن يعرض علينا من خلال كتاباته المبسطة مشروعه الفكرى المتكامل، وتستطيع أن تتابع بدقة تطوره الفكرى فى هذه الكتابات، التى انصح كل مهتم بالدين وبعالم الفكر بقراءتها بعمق.

ونختـم هذا الفصل بإجابـة د. مصطفى محمـود الإيمانية على الذين يسـألون فى حيرة: لماذا خلقنا الله؟ وما حكمة العذاب الذى نعانيه؟ يجيبنا د. مصطفى محمود:

يخبرنا القرآن بمجموع آياته.. بأن الله أنزل الإنسان إلى الدنيا بفضول مفطور فيه.. ليتعرف على مجهولاتها ثم يتعرف على نفسـه. ومن خلال إدراكه لنفسـه يدرك ربه.. ويدرك مقام هذا الرب الجليل فيعبده ويحبه.. وبذلك يصبح أهلًا لمحبته وعطائه.. لهذا خلقنا الله.. وهو يعذبنا ليوقظنا من غفلتنا فنصبح أهلًا لمحبته وعطائه.

بالحب خلق.. وللحب خلق.. وللحب يُعَذِّب.

تبارك وتعالى فى سماواته، الله عَزَّوَجَلَّ الذى خلقنا باسمه الرحمن الرحيم.

❐❐❐